ممالك النيل السوداني وتأثيراتها الثقافية

اشتهرت ممالك السودان النيلية باسم ممالك كوش – كرمة ، نبتة ، مروي (وهي في الغالب ممالك نوبية واسم كوش مستمد من التوارة – ولكن اختلط باسطورة الطوفان ، لأنّه حسب النص التوراتي ، فإنّ نوح عليه السلام ، سكر حتى انكشفت عورته ، فضحك ابنه حام " والد كوش" من منظر والده بينما قام ، ابنه سام " جد سيدنا ابراهيم " ومن ثم جد اليهود والعرب بتغطيته ، وكان رد نوح " حسب الاسطورة التوراتية " أن دعا على حام قائلا أذهب ملعونا في البرية فاسود وجهه من ذلك اليوم ، بينما بارك في سام.

وهذا الأسطورة التوراتية ؟ هي مصدر الثقافة العرقية وثقافة تفوق الرجل الأبيض وانحطاط وضعية الأسود ، ولكن يكذب القرآن الكريم هذه الفرضية بقوله سبحانه وتعالى " في سورة فاطر " ومن الناس والدواب والأنعام مختلف الوانه" فاختلاف الألوان والسحنات ليس له علاقة بالذكاء أو اللون ، وإلا فإن أب البشرية آدم ومن اسمه كان على أدمه إلي سواد .

ومما يكذب وضعية أن السواد يفتقر للإعجاز والإبداع ، ممالك الكوشيين التي قامت على النيل بمعابدها وصناعاتها ومزارعها واهراماتها ولغتها ودياناتها ، أو أهل هذه الممالك هم أقدم الشعوب بعد المصريين عرفوا نظم الحكم المطلق ، ومقتضياته من دين ولغة وجيش ومراكز قرار ومؤسسات وإنتاج مبدع من معابد ومدن وقصور ونظم تشريعية ومالية .

وأصبحت هناك مكتبة سودانية في علم الآثار وتاريخ الممالك السودانية ، أذكر من رموزها المرحوم الأستاذ نجم الدين شريف ، وأحمد على حاكم ، وعلى عثمان وعبدالقادر محمود وغيرهم.

وممالك السودان النوبية منها من قام على التوحيد وعرف فكره الله الواحد الأحد ومنهم من أشترع ديانات ربما ما انزل الله بها من سلطان . وقامت هذه الممالك في هذه الفترات أو الحقب ما قبل بروز الديانات التوحيدية في السودان مثل اليهودية والمسيحية (الديانات الكتابية) ويمكن القول بأن بعضهم كانوا حنفاء وبعضهم غير ذلك .

وبالأضافة إلي الكتب السودانية في ممالك السودان الكوشية ، كان هناك المكتبة الغربية ومن ركائزها بروفيسور شيني وبروفيسور هيكوك وقد درست على يديهم في جامعة الخرطوم وسبقهم طائفة كبيرة يصعب حصرها كتبت في الآثار السودانية وتاريخها والحاضر يستمد حيويته

وصيرورته من التاريخ فمثلا زي ملوك مروي مايزال حاضرا في الزي السوداني المتمثل في العباءة والجلابية والملفحة والحذاء .

كما أن ملوك مروي مثلا كانوا يختتنون ولا يأكلون السمك – وما تزال ثقافة عدم أكل السمك حاضرة وسط بعض قبائل السودان ، كما أن غناء أهل كوش كان من الذرة والتمر واللحوم والألبان وماتزال هذه هي الغالبة على أهل السودان .

وفي يوم من الأيام كانت شعبة الآثار في جامعة الخرطوم من أضخم الوحدات ولكنها ضمرت ربما بتاثير الثقافة الدينية التي رأت في علم الآثار علم اشراكيات ، علما بأن كلمة أثار ذاتها كلمة قرآنية وكلمة مباركة كما هو في سورة غافر "أشد منهم قوة وآثارا في الأرض " وفي سورة الروم آية 9 " أو لم يسيروا في الارض ، فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، كانوا أشد منهم قوة وآثاروا الارض وعمروها) كيف يمكن تنزيل معاني هذه الآية على الارض بدون علم ، وبدون التقنيب والحفر والسير في الارض .

دلت الحفريات أن أبسط قبور الكوشيين كانت تحتوي على بضائع مستوردة بما في ذلك خشب الصنوبر من لبنان ، ولعبة الشطرنج والمنسوجات " راجع سامية بشير : تاريخ مملكة كوش ، وقد لايكتمل فهم النص القرآني دون الرجوع إلي علم الآثار ففي سورة سبأ ورد " لقد كان لسبأ في مسكنهم جنتان عن يمين وشمال " كيف سنعرف حضارة سبأ وتاريخها ومكانها دون علم الآثار ، لأن علم التفسير يقوم على الشواهد اللفظية والمنقولة على محدوديتها وأحيانا النزهات الإسرائيلية إذن لابد من المعالجة العلمية والبناء العلمي حسب منطوق التاريخ وحسب الشواهد المعمارية .

لقد استخدم المرُبوِن القبول ودربوها واستأنسوا الاسود والفهود وتاجروا فيها وصدروها كما صهروا الحديد وبنوا المدن والحدائق وكانوا أهل حضارة وتمدن ونقشوا الزخارف وكانوا أهل كتابة ، وكانت لهم لغتهم المروية بالإضافة إلي معرفتهم باللغات والالسن الأجنبية .

كما اكرم الكوشيون ، المرأة فأصبحت حاكمة " كنداكة " وأصبحت وزيرة مالية " عابدة الإله أمون" وقاتلت حتى أن الكنداكة العوراء ردت جيوش الغزاة الرومان ، وتنزلت ثقافة ممالك كوش حتى على الممالك الإسلامية المتأخرة مثل سلطنة الفونج التي شاع فيها القتل الطقسي – حيث أن القتل الطقسي للملوك وحاشية الملك كان موجودا في الثقافة المروية.

هذه مجرد خواطر وأفكار عابرة عسي أن تلهم الشباب المثقف الولوج لعالم الآثار والتاريخ عالم حضارات السودان القديمة – حتى تبرز نخبة وتجدد هذا الفن ولا نتركه للخواجات .